مجلة الاستيعاب
Eissn : Issn : 2661-7625
المجلد: 6 العـدد: 03 ص 80-72

ثورة المريدين وأثرها في تشكّل الآراء الكلامية لدى متصوّفة الأندلس

The Sufis Revolution and Its Impact on the Formation of Theological Views Among Andalusian Sufis

سهيلة سعدوني [1]

[1] مؤسسة الانتماء (جامعة ابي بكر بلقايد–تلمسان–)، souheyla83@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 05/09/2024 تاريخ القبول: 20/09/2024 تاريخ النشر: 20/09/2024

ملخص:

يركّز هذا البحث على الحدث السياسي المتمثل في ثورة المريدين وأثره على تشكل الآراء الكلامية لدى متصوفة الأندلس، وذلك من خلال دراسة نماذج معينة من هؤلاء المتصوفة، وهي: ابن قسي، ابن العريف، ابن برجان. وقد تبين من خلال الدراسة أنّ الحدث السياسي يدفع إلى التفكير في القضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، ويحمل على ضرورة التجديد في الطرح العقدي والفقهي على حدّ سواء.

كلمات مفتاحية: الحدث السياسي، متصوفة الأندلس، الآراء الكلامية.

Abstract:

This research focuses on the political event and its impact on the formation of theological views among Andalusian Sufis, through a study of certain models of these Sufis: Ibn Qasi, Ibn Arabi, and Ibn Barrajan. The study found that political events push people to think about social, political, and ethical issues, and urge them to renew their theological and jurisprudential discourses.

Keywords:The Political event, Andalusian Sufis, theological views.

1) المؤلف المرسل: سهيلة سعدوني ، souheyla83@hotmail.fr

1. مقدمة:

يعتبر الحدث السياسي بشكل عام ظاهرة مؤثّرة ومهمة تحدث في المجال السياسي، ولها تداعيات كثيرة على المجتمع وأفراده بشكل مباشر أو غير مباشر. ويمكن أن يكون الحدث السياسي حدثًا محليًا أو إقليميًا أو دوليًا، ويمكن أن يكون سلميًا أو عنيفًا. مثل الانتخابات الرئاسية أو البرلمانية، الثورات أو الانقلابات العسكرية، الحروب والنزاعات المسلّحة...الخ

وكما يشهد هذا العصر مثل هذه الأحداث السياسية، كذلك شهدت القرون التي خلت والعصور التي انقضت أحداثا سياسية كثيرة، فلا يخلو عصر من العصور منها، لأنّها جزء أساسي من حياة الإنسان كونه كائن اجتماعي ودائماً ما يسعى إلى تنظيم حياته الاجتماعية والسياسية، كما أنّ العديد من العوامل الداخلية والخارجية تؤدي إلى ظهور صراعات ومصالح متعارضة قد تختلف في شدتها أو أهميتها، لكنها لا تنفك بأي حال من الأحوال عن حياة البشر.

ولقد شهدت الأندلس العديد من الأحداث السياسية والثورات خلال فترة حكم المسلمين فيها، والتي امتدت من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر ميلادي. ومن أبرز هذه الأحداث: ثورات الصوفية أو ما يعرف بثورة المريدين، أبرزها ثورة ابن قسي في ق 6 هـ/ 11 م، والتي كانت بمثابة ثورة اجتماعية وسياسية ضد الحكم الأندلسي الموافق لقرارات الفقهاء.

كان لهذه الثورات تأثير كبير على التصوف الأندلسي بشكل عام، وعلى الآراء الدينية الكلامية منها والفقهية بشكل خاص، حيث دفعت المتصوفة إلى التفكير في القضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وإلى ضرورة التجديد في الطرح العقدي والفقهي.

من هنا جاءت الإشكالية التي يعالجها هذا البحث كالآتي: كيف أثّر الحدث السياسي على تشكل الآراء الكلامية لدى متصوفة الأندلس؟ ويسعى البحث إلى الإجابة على هذا السؤال من خلال دراسة بعض الآراء الكلامية لنماذج معينة من متصوفة الأندلس، وهي: ابن قسي، وابن العريف، وابن برجان. وقد قسمت الدراسة إلى محورين:

المحور الأوّل: الدوافع السياسية والاقتصادية لثورة المريدين

المحور الثاني: الآراء الكلامية لمتصوفة الأندلس المتعلقة بثورة المريدين

1.الدوافع السياسية والاقتصادية لثورة المريدين

كانت البيئة السياسية والاجتماعية في الأندلس قبل ثورة المريدين متوترة للغاية ومضطربة، فقد كانت الدولة المرابطية في حالة ضعف، وكان هناك انقسام بين أفراد الأسرة الحاكمة. كما كان هناك استياء واسع النطاق من سوء إدارة الحكم المرابطي، وخاصة من فرض الضرائب الباهظة على الناس وقمع المعارضين، ففي السنوات الأخيرة من حكم المرابطين، ضعفت قوتهم العسكرية والسياسية، وعانت الدولة من هزائم عسكرية في شمال أفريقيا، كما تعرضت لهجوم من النورمان في الأندلس. وفي عام 539 هـ/1144 م، اندلعت ثورة المريدين في منطقة الغرب الأندلسي، بقيادة أبي القاسم أحمد بن قسي. كانت الثورة شعبية في الأساس، وقد ضمت إليها العديد من الفئات الاجتماعية، بما في ذلك الفلاحون والتجار والحرفيون الذين كانوا يشعرون بالإحباط من ضعف الدولة وانتشار الفساد. وفي الفترة التي سبقت الثورة، ظهرت حركات ثورية أخرى في الأندلس، مثل ثورة ابن رحمون في شرق الأندلس ممّا أدى إلى انتشار روح المقاومة بين الناس، وكان من السهل على ابن قسي أن يجمع حوله الأتباع من أجل إسقاط الحكم المرابطي.(مغنية غرداين، 2013، الصفحات 157-169)

من ناحية أخرى، يمكن القول إن الطبيعة الجغرافية لمنطقة الغرب الأندلسي كانت لها تأثيرات سلبية على اقتصاد المنطقة وسكانها، فقد كان البعد الجغرافي لموانئها عن البلاد الإسلامية الأخرى، ومنافسة المرية لها واحتكارها لشرايين الحركة التجارية في الأندلس، من العوامل التي أدت إلى تضرر اقتصاد المنطقة. كما كان لقرب المنطقة من المناطق التي كانت تابعة للممالك النصرانية دور كبير في تعرضها للحملات التخريبية، خصوصا في فترات ضعف السلطة المركزية في الأندلس. وذلك ما أدّى إلى ظهور العديد من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية المستعصية التي واجهت سكان المنطقة، كضعف التجارة وانخفاض الدخل الاقتصادي للمنطقة وبالتالي زيادة الفقر والشعور بالخوف والقلق.(مغنية غرداين، 2013، صفحة 74)

فضلا عن ذلك، فإنّ ابن قسي كان قد ادّعى الإمامة وكان الهدف منه إضفاء الصبغة الدينية على دعوته من أجل كسب تأييد الأتباع وتقويض الحكم المرابطي بالأندلس وإقامة كيان سياسي مستقل. وقد كان

ادعاء الإمامة وسيلة من وسائل تحقيق هذه الأهداف، حيث كان من شأنه أن يعطي للثورة صبغة دينية، ويجعلها أكثر جاذبية للمسلمين، وهو بذلك قد حاول التشبه بابن تومرت، سواء من حيث أسلوب الدعوة أو الأفكار.(مغنية غرداين، 2013، صفحة 81)

وقد تزامنت ثورة ابن قسي مع ثورة ابن تومرت، حيث اندلعت ثورة ابن قسي في عام 539 هـ/1144 م، بينما اندلعت ثورة ابن تومرت في عام 544 هـ/1147 م. وقد كان لظهور ابن تومرت وادّعائه المهدوية في المغرب في نفس الفترة تأثير كبير على مسلمي الأندلس، حيث أدى ذلك إلى أن يكونوا أكثر استعداداً لتقبل دعوة ابن قسي.

2. الآراء الكلامية لمتصوفة الأندلس المتعلقة بثورة المريدين

- الآراء الكلامية لأبي القاسم بن قسيّ (ت 546هـ):

في ضوء الملاحظات في المصادر التي تذكر إمام ثورة المريدين أبا القاسم بن قسيّ، يمكن القول إن هذه المصادر تعاني من ضعف في المادة الإخبارية، مما يؤدي إلى تقطيع النسق الروائي الشائع والإبقاء على ثغراته. هذا الضعف يجعل من ابن قسي شخصية معروفة مجهولة، معروفة من حيث الأحداث التي تذكرها له، والأفعال والأقوال التي تنسبها له، ومجهولة كالمجهول من حيث الاقتضاب الذي تعرض به الأحداث والأقوال وفي عزلها للظاهرة، ثم إطلاق الأحكام جزافا بشكل لا يخفى معه التحيز، وبترك الظاهرة غامضه ومبهمة ومثيرة لأكثر من سؤال.(أحمد بن قسي، 1997، صفحة 30)

فضعف المادة الإخبارية يكمن في تقديم معلومات قليلة ومجزأة عن حياته وثورته لا تكاد تكفي لتكوين صورة واضحة عنه. فهو شخصية معروفة مشهورة مرتبطة بأهمّ ثورة في الأندلس والمغرب وهي الحدث السياسي الأبرز الذي يوصل بين أواخر مرحلة المرابطين وبداية مرحلة الموحدين، فكان غريبا الاقتضاب في ترجمته دون شرح وتوضيح وإطلاق الأحكام الجزافية عليه دون تقديم أدلة أو براهين تدعم هذه الأحكام.

فنجد المراكشي في المعجب مثلا يصفه بأنّه رأس الضلال والفتن وصاحب حيل وشعبذة، وينعته ابن الأبار في الحلة بأنّه كان يزعم الزهد ويحرض على الفتنة. كما أن هناك تضارب بين المصدرين في قصة

مقتله.(عبد الواحد المراكشي)(ابن الأبار)كذلك ذكره ابن تيمية في كتبه في معرض الردّ على من قال بتفضيل الولاية عن النبوّة.(ابن تيمية)

ونحن لا نريد في هذا المقام أن نناقش مرويات المؤرخين لهذه الفترة ولثورة المريدين، وإنّما نروم التركيز على آراء ابن قسي الكلامية التي من شأنها أن تفصح عن أثرها على الحدث السياسي المتمثل في ثورة المريدين، ولا يتأتّى ذلك إلا بقراءة متأنية محقّقة لكتابه "**خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين**".

القارئ للصحيفة الثالثة المعنونة بـ:"**المحمديات**" في كتاب خلع النعلين يشعر أنّ ابن قسي يوجّه خطابه للأتباع الذي هم على أهبة الاستعداد للثورة. يعلن لهم عن "ملكوتية الإلقاء" التي هي "أمية الإخبار والإملاء"، أي الإلهام الإلهي والكشف اللدني الذي حباه به الله تعالى والذي هو مقتبس من الرسالة المحمّدية. ثم يقول أنّ الله "فتح له عن مغالق الأبواب، وبطائن الأسباب" أي فتحت له أبواب جديدة من المعرفة والفهم، وتمكن من رؤية "حدائق الرحمة" بوضوح. ويسميها في موضع آخر بـ"الفتح الخبري" و"الكشف النظري" أي أنّه فتح مؤيّد بالخبر الإلهي وكشف أي تلقّ عن بصيرة. ويدعو ابن قسي الله أن يمنح الجميع طعمًا من هذا العطاء الرباني.(أحمد بن قسي، 1997، الصفحات 210-212)

كما يشدّد ابن قسي على حفظ "ملكوتية الإلقاء" لمن آتاه الله بها، فهي "أمانة الله" التي يجب على الولي أن يرعاها ويحافظ عليها ويقدرها حق قدرها. في المقابل يحذّر ابن قسي من خطر إساءة استخدام الفقه، وهو ما يحدث عندما يُستغل الفقه لتحقيق أهداف دنيوية أو لتحقيق مكاسب شخصية. يقول ابن قسي: "ورب حامل فقه لم يفقه حين يفقه إلا دنيا، فلم يزده ذلك إلا قسوة وعمى." يشير هذا التعبير إلى أن ابن قسي لم يكن راضيا عمّا آلت إليه الأمور في عهد المرابطين الذين أسندوا الأمر للفقهاء الذين لم يكونوا في نظره على قدر المسؤولية الدينية.(أحمد بن قسي، 1997)

يظهر من خلال كلامه عن ملكوتية الإلقاء أنّ الولاية والإمامة لا تكون إلا لمن تلقّى العلم اللّدني فهم يخلفون الأنبياء في العلم والتعليم والقيادة والرئاسة وسياسة الخلق، وليس الولي الإمام من آل البيت بقدر ما هو من آل الإيمان، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " سلمان منّا أهل البيت". والوليّ الإمام هو الغريب

المذكور في قول النبي صلى الله عليه وسلم:" فطوبى للغرباء"" الذين يصلحون ما أفسده الناس" فالغريب مقرّب والقريب صفيّ بالنور النبوّي والروح القدسيّ.(أحمد بن قسي، 1997، الصفحات 231-232)

كذلك تتمثّل نظرية ابن قسي الكلامية المتعلّقة بالجانب السياسي في مبدأ التضايف la correlation : وهو التوالج والتداخل بين الظاهر والباطن، فالباطن هو حياة الظاهر وقوامه ونوره ومداده، والظاهر قرار الباطن ومقامه ومآله، وعليه يكون كل باطن حقيقة لكل ظاهر، فيلزم عن ذلك أن الصوفي الولي باطنا هو حقيقة الفقيه أو السلطان والإمام ظاهرا. وبالتالي فإن الصوفي الولي هو الوارث الشرعي للسلطة السياسية لكونه يقتبس من مشكاة الولاية التي بمثابة مشكاة النبوة للنبي.(أحمد بن قسي، 1997، صفحة 50)

كما نجده يصف رجال الغربة في فترة الظلم "بالخارجين من النار الملاحظين لحضرة العزيز الجبار، ففيهم الولايات والكرامات وفيهم مبعث النور من الآفاق العليات..."(أحمد بن قسي، 1997، صفحة 237)

وهم في جهاد ضدّ الطغاة الأشرار الفراعنة الجبابرة الخائنون. وقد ظفر أهل الأندلس بابن قسي-بإشارة منه وتلميح إلى شخصه- بصفته " الروح الذي ظهر" و"المهين في بلده" و"المغفول عنه في جماعته" " يعرف هذه المعارف ويطلع على الفجر الطالع" وهو" مرئيّ بحاسة النظر موجود بارز كالقمر"(أحمد بن قسي، 1997، صفحة 238)

- **الآراء الكلامية لابن برجان (ت 536هـ)**

القارئ لتفسير ابن برجان الموسوم بـ: "تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم" يجد أنّه لم يعالج المسائل السياسية كثيرا، واعتمد على التلميح والإشارة في معرض تفسيره لآيات الحكم وطاعة أولي الأمر وآيات الخلافة والعمران.

يقسم ابن برجان الخلافة إلى قسمين: خلافة عليا وهي أن يكون الخليفة على حكم مستخلفه وهو الله تعالى وعلى نحو ما علّمه وخلقه، فهو مؤهّل أن يقضي بقضائه ويحكم بحكمه لقوله تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض). وخلافة دنيا وهي خلافة مجازية لكل مسلم وتقتضي المحافظة على العهد (العقيدة) والعمل بالأمر(الشريعة) وهي في قوله تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة). ويضيف ابن برجان

أنّ كلتا الخلافتين على درجات وبينهما وسائط فيكتفي بهذه الإشارات ويدعو إلى التأمّل.(أبو الحكم بن برجان، 2013، صفحة 177)

جعل ابن برجان الإسلام على ضربين: إسلام لله تعالى وقصد به التوحيد الخالص والانقياد لأوامره، وإسلام سماه "إسلام الخليقة" وعرّفه بأنّ تكليف من الله للعقول وابتلاء منه لها وشرع شرّعه، وهو الاستسلام والاقتداء وطاعة محضة لمن اختصّه الواحد القهار، ويشير بذلك إلى الرسول وبعده الخليفة أو الحاكم أو ولي الأمر. بل أكّد على أنّ الإسلام الثاني وهو إسلام الخليقة راجع إلى الأول فمن أسلم لله سيسلم لوليّ الأمر ويطيعه، ومن عصا فهو مثل إبليس الذي نكص وفاخر بالخلقة واستكبر فكان من الكافرين.(أبو الحكم بن برجان، 2013، صفحة 510)

أمّا عن موقف ابن برجان من ثورة المريدين المتصوفة التي قادها ابن قسي، فنجد في كتب التاريخ أنّ ابن برجان قد حرص على تجنب التعامل مع العلماء المالكية المرتبطين بالسلطة من جهة وعدم المشاركة الفعلية في الثورة من جهة أخرى، وفضّل الحياد و هو ما دفعه إلى العيش في الريف و تفرغه للتأمل الروحي و الفلسفي. لذلك ، يمكن القول أن ابن برجان لم يدعم ثورة المريدين التي قادها ابن قسي على الأقل ظاهرا وإعلانا، وهذا ما وقفنا عليه في تفسيره.

- **الآراء الكلامية لأبي العباس ابن العريف الصنهاجي ت (536هـ)**

هاجم ابن العريف الصنهاجي فقهاء عصره وسماهم علماء أهل السوء وكبارء أهل الدنيا المغرورين، والذين تكالبوا على الدنيا وجمعوا الثروات وتركوا مصالح الناس وأهملوها، وفي نفس الوقت كان ينهى المريدين عن مهاجمة المرابطين وأمرائهم أو القدح في دولتهم، لأنّه كان يعتبر مهاجمة الدولة من المنكر بل أشد وأدعى إلى الفتنة فيقول: " أمّا الإنكار في العلانية على الحكماء فإنه من فساد سر المنكر وإعلام ركوبه للحرام والكراهية، والمختار عند العلماء باتّفاق منهم الإمساك عما في إنكاره إياه منكرا آخر مساويا أو أشدّ"(أحمد بن محمد بن العريف، 1993، صفحة 33)ويقول في رسالة لأحد إخوانه: " السلطان حجة الله، ولا ينبغي أن ينكر عليه شيء من فوله أو عمله إلا بشروط..."(أحمد بن محمد بن العريف، 1993، صفحة 33)

وقد شدّد على بعض المريدين الذين تأثروا بفتنة المهدي بن تومرت عدم الاشتغال بأمور الدنيا أعلاها وأدناها وعدم الانسياق في تيارات السياسة والحكم والسلطان وأن لا يذكروهم بقليل أو كثير، وإلا كان هؤلاء المريدين أدعياء سلوك ووجد من أجل تقويض الدولة فقد فيبطنون غير مايظهرون.(أحمد بن محمد بن العريف، 1993، صفحة 35)

أما عن المهدوية التي ادّعاها كل من ابن تومرت وابن قسي، فيقول ابن العريف:" والقدح في الدول وانتظار مهدي يصلح به لا يعتقده حصيف ولا يظنّه إلا مسلم ضعيف، بكى الناس في ملك بني أمية وظهر المهدي فإذا به ملك بني العباس، وحين ظهر وقع الناس في الندم وبكوا على بني أمية بالدمع والدم... وجنح أهل إفريقية من أمراء بني العباس وتكلموا فيه حتى ذكروا المهدي فإذا هو شيعي رافضي كافر، فألزمهم الله أحكام الكفرة في بتعدّيهم في إنكار جور الجورة"(أحمد بن محمد بن العريف، 1993، صفحة 35) وأقواله الكلامية في السياسة مبنية على أصول لديه منها أنّ "المطية إلى درك الحقائق والتقصي عن شرك العلائق الهم الصادق والحزن المتناسق"(أحمد بن محمد بن العريف، 1993، صفحة 111)

4.خاتمة:

تناول هذا البحث آراء كلامية متعلقة بالسياسة لثلاثة من الصوفيين الأندلسيين في القرن السادس الهجري، وهم: أبو القاسم بن قسي، وابن برجان، وابن العريف، وذلك في سياق دراسة ثورة المريدين التي قادها ابن قسي في الأندلس. حيث تمحورت آراء ابن قسي حول الولاية والإمامة والمهدوية، حيث اعتبر أنها لا تكون إلا لمن تلقى العلم اللّدني، وهو ما ينطبق على الصوفي الولي. كما دافع عن مبدأ التضايف بين الظاهر والباطن، حيث اعتبر أن الصوفي الولي هو حقيقة الفقيه أو السلطان والإمام ظاهرا.

أما ابن برجان، فقد حاول التوفيق بين الدين والسياسة، حيث قسم الخلافة إلى قسمين: خلافة عليا وخلافة دنيا. كما اعتبر أن الإسلام على ضربين: إسلام لله تعالى وإسلام الخليقة، وأنّ إسلام الخليقة راجع إلى الأول.

أما ابن العريف، فقد هاجم فقهاء عصره ورأى أنّهم أهملوا مصالح الناس، لكنه في نفس الوقت كان ينهى المريدين عن مهاجمة المرابطين وأمرائهم أو القدح في دولتهم. كما رفض مبدأ المهدوية الذي ادّعاه كل من ابن تومرت وابن قسي.

5. قائمة المراجع:

- ابن الأبار، الحلة السيراء.
- ابن تيمية ،الصفدية .
- ابن تيمية ،منهاج السنة النبوية.
- ابن تيمية ،بغية المرتاد .
- بن برجان، أبو الحكم ،2013م، تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم ،دار الكتب العلمية
- بن قسي، أحمد، 1997م،خلع النعلين واقتباس النور من موضع القدمين.
- العريف،أحمد بن محمد، 1993م، مفتاح السعادة وتحقيق طريق السعادة ، دار الغرب الإسلامي.
- غرداين، مغنية ،2013، مجلة الخلدونية.
- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في أخبار المغرب.